

أسس نظرية النظم في الدرس اللغوي الحديث

د/ عمر بوقمرة

جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف (الجزائر)

الملخص:

كتاب الدلائل أحد أهم كتب عبد القاهر الجرجاني البلاغية، وقد ضمنه صاحبة نظرية النظم، وهي من أهم النظريات اللغوية العربية القديمة؛ التي مازالت تفصح يوما بعد يوم عن قيمتها العلمية، ومكانتها اللغوية، كلما قورنت بأحدث النظريات اللغوية الغربية، وهذا البحث يجتهد في استخراج أسسها من خلال الدلائل أولا، والدراسات التي جرت فيه ثانيا؛ فما النظم؟ وما أسسه عند الجرجاني؟ وكيف نظر إليها اللغويون العرب المحدثون؟

الكلمات المفتاحية: النظم، النحو، التعلق، الموقع، اللفظ، المعنى.

Title: Bases of system theory in the modern language lesson.

Abstract: The book of dalail - al-iajaz is one of the most important rhetorical books; written by Abdul Qahir Al-Jarjani, and has been included by the theory of system, which is one of the most important theories of ancient Arabic language; which is still revealed day after day of its scientific value and linguistic status, compared to the latest theories of Western language. This study tries to extract the bases of system theory from the book firstly; and the studies about it secondly. What system? And what he founded at Al-Jarjani? And how did the modern Arabic linguists look at it?

Keywords: system, grammar, attachment, location, pronunciation, meaning.

مقدمة:

بداية يجب أن نؤكد أنه عندما نقول: "أسس نظرية النظم"، أو "أركان النظم" فإننا نعني بذلك أسس نظم الكلام؛ أي: ما هي المراحل التي تمر بها عملية إنتاج الكلام، انطلاقا من الدرجة الصفر حتى الانتهاء منه؟ وعليه فما ورد الحديث عنه في دلائل الإعجاز من قضايا؛ كالفصاحة والبلاغة، وسبب وضع المفردات، واللغة، وغيرها، لا يمكن أن تعد أسسا لنظرية النظم، بل تمهيدا لها فقط، فهي عبارة عن مقدمات بين يدي هذه النظرية.

وبالاطلاع على بعض المؤلفات حول هذا الكتاب - الدلائل - نجد أكثرها لا تحصر أسس هذه النظرية حصرا، بل تتطرق إلى القضايا التي عولجت فيه دون تفريق بين ما هو تحقيق في مسألة تاريخية، وبين ما يعد أساسا في عملية نظم الكلام، فمثلا نجد جعفر دك الباب في كتابه "الموجز

في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني" - وهو من أشهر الكتب في هذا الباب - يقول: "بل سنعمد إلى عرضها بترتيب مغاير يمكننا من التعرف على أسس نظرية الإمام الجرجاني في اللغة ووظائفها"¹، ثم راح يعالج قضايا كثيرة منها: سبب وضع المفردات، والفصاحة والبلاغة، ومعاني الكلام، ونظم الكلم ونظم الحروف، وغيرها من المسائل دون ذكر لمراحل إنتاج الكلام وصناعته؛ وعليه سوف أحاول جاهدا في هذا البحث ذكر الأسس والمراحل التي لا يمكن للكائن البشري الاستغناء عليها لصناعة الكلام وإنتاجه، متجاوزا للمسائل التاريخية، والقضايا الجزئية، التي لا ترتبط ارتباطا عضويا بأحد أسسها.

1- النظم في اللغة والاصطلاح:

أ- النظم لغة:

ورد في لسان العرب ما يلي: النظم: التأليف: نظمته نظما ونظاما، ونظّمه فانظّمه وتنظّمه، ونظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك، والتنظيم مثله، ومنه نظمت الشعر ونظّمته... وكل شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض فقد نظّمته"².

ب- مفهوم النظم عند الجرجاني:

يقول: واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت؛ فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك؛ فلا تخل بشيء منها"³. فالنظم في اللغة هو التأليف والجمع وضم الشيء بعضه إلى بعض، وهو معنى لغوي عام يشترك فيه الكلام مع اللؤلؤ -مثلا- وبقية الأشياء المحسوسة، ولكن الجرجاني أضاف من خلال تعريفه قيما اصطلاحيا متمثلا في نظم الكلام وفق النظام النحوي للغة العربية، وما يتيح من خيارات؛ تجعل الناظم يُعمل فيها فكره لانتقاء أكثرها نجاعة بعيدا عن الاعتباطية والعشوائية. والمتأمل لأسس نظرية النظم -كما سيأتي- يدرك أنها ثابوية في ثنايا تعريف عبد القاهر الجرجاني السابق والذي عليه دار كتاب الدلائل شرحا وتمثيلا، ولا يعدو اجتهاد المحدثين العرب كونه انتقasha لتلك الأسس من خلال هذا التعريف وشروحاته.

2- أسس نظرية النظم:

أ- نظم المعاني في النفس ثم نطق الألفاظ حذوها:

لقد تحدث الجرجاني عن المعاني النفسية مرات كثيرة، وعدّها عنصرا أساسيا وجوهريا في عملية النظم، فالنظم عنده ليس نظما للألفاظ أو الحروف، بل نظما للمعاني في النفس أولا، وإذا تم

ذلك فليس للألفاظ إلا أن تطيع سيدها - المعاني - وتحذو حذوه خطوة خطوة، لا تحيد عن ذلك قيد أملة؛ وعليه فإذا فرغ المتكلم من نظم المعاني، فالألفاظ تترتب على حسب ترتب المعاني في النفس، دون أن يستأنف المتكلم فكرا جديدا لترتيب الألفاظ.

يقول عبد القاهر: " فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق، فأما أن تتصور في الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب، وأن يكون الفكر في النظم الذي يتوأسفه البلغاء فكرا في نظم الألفاظ، أو أن تحتاج بعد ترتيب المعاني إلى فكر تستأنفه لأن تجري بالألفاظ على نسقها، فباطل من الظن، ووهم أن يتخيل إلا من لا يوفي النظر حقه، وكيف تكون مفكرا في نظم الألفاظ، وأنت لا تعقل لها أوصافا وأحوالا إذا عرفت عرفتها أن حقها أن تنظم على وجه كذا؟"⁴.

والجرجاني بهذا القول يرد على المعتزلة عموما والقاضي عبد الجبار خصوصا، الذين يرون أن النظم هو نظم للألفاظ، ويواصل الجرجاني جداله لخصومه منكرًا عليهم ذلك، فيقول: " وكيف يتصور أن يقصد به توالي الألفاظ في النطق بعد أن ثبت أنه نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وأنه نظير الصياغة والتجوير والتفويف والنقش، وكل ما يقصد به التصوير"⁵. "ودليل آخر وهو أنه لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس، ثم النطق بالألفاظ على حذوها؛ لكان ينبغي ألا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه؛ لأنهما يجتازان بتوالي الألفاظ في النطق إحساسا واحدا، ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئا يجمله الآخر"⁶. وهذا طبعًا إذا استوى الناطقان في سلامة الأجهزة النطقية الصوتية، بل لو كان الأمر كذلك لكان نظم البيغاء للألفاظ خير من كثير من الشعراء والخطباء، بل ونظمه خير من نظم واصل بن عطاء.⁷

يقول محمود أحمد نحلة مبينا أهمية هذا الركن عند عبد القاهر الجرجاني: "وقد بنى عبد القاهر على هذه الفكرة الركن الأول من أركان نظريته في النظم وهو ما أسماه " ترتيب المعاني في النفس ثم النطق بالألفاظ على حذوها "⁸، كما عد تمام حسان عملية النظم النفسي هي المرحلة الأولى من مراحل إنتاج الكلام فقال: " يرى عبد القاهر أن المقصود بالنظم إنما هو نظم المعاني النحوية في النفس... ومعنى النظم أن يعمد المتكلم إلى اختيار ما يناسب غرضه من هذه المعاني إذ يوردها على خاطره قبل أن يبني لها الكلمات"⁹.

وهنا نعيد القول مرة أخرى مؤكدين أن عبد القاهر لا يعني بالمعاني النفسية، المعنى الذي هو غريم اللفظ، ولا المعاني المعجمية للألفاظ المفردة، وإنما يعني المعاني النحوية التي بها يحدث النظم

وعلى سلكها يتم ترتيب الألفاظ. تقول سناء حميد البياتي: " يقصد الجرجاني ب (معاني النحو): المعاني الذهنية التي تتولد في فكر المتكلم عند نظم الجمل، تلك المعاني التي تنشأ من تحديد العلاقات بين الأشياء المعبر عنها بالكلم، فتربطها ببعضها، كما يربط السلك الشفاف حبات العقد؛ لذلك يصبح الكلام نوعاً من الهذيان في حالة فقدانها"¹⁰.

ويقول أحمد حسن صبرة: " ولا يقصد عبد القاهر من المعاني المعاني العامة للكلام، أو المعاني المعجمية لألفاظ اللغة، وإنما يعني المعنى النحوي الذي يكتسبه اللفظ في السياق، والعلاقات الناشئة بين الكلمات في السياق (التآليف)" ¹¹.

وقد فصلت سناء حميد البياتي في هذه المرحلة أكثر معتمدة في ذلك على ملاحظة الذات، فتقول: " لذلك فإننا إذا أردنا أن نكشف عن معاني النحو التي تتألف منها الجملة، لا بد من معرفة المعاني الذهنية التي تتألف منها الفكرة، وهذا يتطلب التوغل في الذهن لكي نتحسس ما يجري في أذهاننا عند نظم الجمل، وهذا ما فعلته، فقد توغلت في ذهني كي أتحمس ما يجري فيه عند نظم الجمل، وبعد التفكير العميق اكتشفتما يأتي " ¹²، لقد اكتشفت أن هناك نوعين من الجمل، نوع تمر في ذهن المتكلم بمرحلتين عند نظمها، مرحلة أولى وفيها يتم تحديد العلاقات بين الأشياء، فعندما يدرك الفكر أن هناك علاقة بين شيئين، ولتكن مثلاً علاقة إسناد أو إتياع أو إضافة، ينجز هذا المعنى الذهني الذي يحدد العلاقة بين الشيئين وبومضة سريعة، شريطة أن تكون طريقة الربط وتحديد العلاقة مما تعارف وتوافق عليه أبناء اللغة الواحدة.

أما المرحلة الثانية فيتم خلالها تحديد الألفاظ الملائمة، وهنا يلجأ المتكلم إلى رصيده اللغوي يختار منه اللفظ الأليق للمعنى الذهني، من بين عدة ألفاظ مترادفة، وكلما حصل التناغم والتلاؤم بين المعنى النحوي واللفظ المختار، حصل التمايز الأسلوبي الفني للخطيب أو الشاعر؛ ومن هذا المنطلق تصير معاني النحو هي التي تتحكم في المتكلم؛ وتفرض عليه أن يختار من أقسام الكلام القسم المناسب من اسم أو فعل أو حرف، وإذا سمح نظام الجملة بأكثر من اختيار لتوصيل وتأدية المعنى الذهني، كأن يسمح له بانتقاء الفعل أو باختيار الاسم للمعنى النحوي ذاته، كما هو الحال في الجملتين التاليتين: "يسعدني أن تنجح" و "يسعدني نجاحك"، هنا يحق للمتكلم أن يختار أصلحها وأنسبها. وهذه الجمل التي تمر بمرحلتين سميتها سناء حميد البياتي بالجملة الخبرية المثبتة.

أما الجمل التي تمر بثلاث مراحل فقد زادت على الجمل الخبرية المثبتة بمرحلة، وهي مرحلة تحديد المفهوم العام، أو المعنى العام الذي يتحدد بأداة من أدوات اللغة، كالنفي، والاستفهام، والشرط، وغيرها¹³.

ومن خلال العرض السابق لكل من تمام حسان وسناء حميد البياتي؛ يتضح أنهما يتوافقان في شرح هذه المرحلة التي تعد العمود الأساس لنظرية النظم، إلا أن سناء فصلت أكثر بأن جعلت نوعاً من الجمل يمر بمرحلتين، ونوعاً آخر يمر بثلاث مراحل.

وعلى الرغم من محاولتها المشكورة في تحسس ما يجري في ذهنها ثم الاستنتاج، إلا أنه يصعب القطع بنتائجها؛ لأن البحث في ذلك هو بحث في النفس، ومعلوم أن هذا الأمر غاية في الصعوبة، ثم إن هذه المراحل والعمليات الذهنية غير ملاحظة من قبل المتكلم أو الدارس، ولا يمكن الفصل بينها زمنياً، بل هي تتم في ومضة سريعة جداً، كما أنها حصرت معاني النحو التي تحدد العلاقات بين الكلم داخل الجملة أياً كانت في أربعة أمور، وهي: الإسناد، والتخصص، والإضافة، والإتباع، وهذه المعاني تمثل الدرجة الصفر في الكلام¹⁴، ولكنها لم تشيع الفكرة نظرياً ناهيك عن التطبيق، وذلك متأثراً في تقديرنا من صعوبة البحث في المسائل النفسية الذهنية.

ب- التعلق النحوي:

وهو الأساس الثاني الذي يراه محمود أحمد نحلة يقول عن الجرجاني: " ولقد قادت فكرة ترتيب الألفاظ حسب ترتيب المعاني في النفس إلى فكرة أخرى، تعد فيما نرى الركن الثاني من أركان نظريته، وهي فكرة التعلق النحوي"¹⁵. وقد جعل تمام حسان هذه الفكرة -التعلق النحوي- المرحلة الرابعة من مراحل إنتاج الكلام، فقال: "وتتمثل هذه المرحلة في أمور، مثل المطابقة، وحروف الربط، التي تؤدي إلى توثيق الأواصر بين عناصر الجملة على صورة تتحدى الفصل والاعتراض والاستتار والحذف إلخ، مما يجعل المعنى الكلي للكلام واضحاً، ولا سيما إذا أعانت القرائن السياقية والخارجية على هذا الوضوح"¹⁶.

فالألفاظ والمفردات لا توضع بجوار بعضها بعض دون أواصر وروابط بينها، بل يتم ذلك التجاور بعلاقات نحوية، وبدونها لا يتم الكلام ولا يفهم المرام. يقول الجرجاني: " واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشك، أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، وتجعل هذه بسبب من تلك، هذا ما لا يجهله عاقل، ولا يخفى على أحد من الناس"¹⁷.

وقد فصل الجرجاني في ذلك فجعل التعلق ثلاثة أقسام قائلاً: "وإذا نظرنا في ذلك علمنا أن لا محصول لها غير أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلاً لفعل أو مفعول، أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبراً عن الآخر، أو تتبع الاسم اسماً على أن يكون الثاني صفة للأول، أو تأكيداً له، أو بدلاً منه، أو تجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثاني صفة أو حالاً أو تمييزاً، أو تنوحي

في كلام هو لإثبات معنى أن يصير نفيًا، أو استفهامًا، أو تمنيًا، فتدخل عليه هذه الحروف الموضوعية لذلك، أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطًا في الآخر، فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى، أو بعد اسم من الأسماء التي ضمنت معنى ذلك الحرف، وعلى هذا القياس¹⁸.

فهذا التعلق في جملته ثلاثة أقسام - كما مر - وهي تعلق اسم باسم مثل: زيد كريم، وتعلق اسم بفعل مثل: جاء محمد، وتعلق الحرف بهما مثل مررت بزيد، ولم يأت زيد، وهذا التعلق عند الجرجاني درجتان: درجة تقف بك عند حدود الصواب، ودرجة ترقى بك في فضائل حسن الخطاب. يقول: " فإذا قلت: أفليس هو كلامًا قد أطرده على الصواب وسلم من العيب؟ أفما يكون في كثرة الصواب فضيلة؟ قيل: أما الصواب كما ترى فلا؛ لأننا لسنا في ذكر تقويم اللسان، والتحرز من اللحن، وزينغ الإعراب، فنعتد بمثل هذا الصواب، وإنما نحن في أمور تدرك بالفكر اللطيفة، ودقائق يوصل إليها بثاقب الفهم، فليس درك صوب دركًا فيما نحن فيه، حتى يشرف موضعه، ويصعب الوصول إليه، وكذلك لا يكون ترك خطأ تركًا حتى يحتاج في التحفظ منه إلى لطف نظر وفضل رؤية وقوة ذهن وشدة تيقظ"¹⁹.

وقد أكد عبد الحميد أحمد يوسف هندراوي ذلك بما لا يدع مجالًا للريبة؛ فقال: " والحقيقة أن عبد القاهر يفرق في كلامه بين نوعين من الصواب في الكلام والمعاني؛ الأول: ما يمكن أن نصلح على تسميته بالصواب النمطي أو الصواب النحوي، والثاني: هو ما حقق ذلك الصواب وزاد عليه بحسن الصياغة، وهذا الثاني هو الجدير بأن يستدرك في نظر الجرجاني وفي نظر البلاغيين قاطبة كذلك"²⁰.

وليس معنى هذا أن المستوى الثاني يخرج عن قواعد النحو، بل هو دائمًا في إطار ما تسمح به اللغة، إما حقيقة أو مجازًا، فهذان " المستويان من اللغة كلاهما واقع في إطار ما تسمح به اللغة، إما حقيقة أو مجازًا، فالمستوى الثاني البلاغي، وإن كان قائمًا على قدر كبير من التوسع أو التسامح والأريحية في الاستعمال اللغوي، فإنه واقع كذلك في إطار ما تسمح به اللغة، بحيث لا تخرج إلى نوع ثالث من الاستعمال يعد مرفوضًا في العرف اللغوي بين أبناء اللغة الواحدة، وذلك لأن ما يقع في المستوى البلاغي من العدول أو الخروج أو الانحراف، غالبًا ما يكون عدولًا مقننًا مضبوطًا بقواعد لغوية تقنن هذا العدول"²¹، ثم عمد هندراوي إلى مقارنة ما استوحاه من كلام عبد القاهر بما ذهب إليه العالم اللغوي الشهير " تودورف"، فيقول: " ولعل هذا الذي استوحيناه من كلام عبد القاهر هو ما قصد إليه تودورف العالم اللغوي الشهير، حيث يرى أن الاستعمال يكرس اللغة

في ثلاثة أضرب من الممارسات: المستوى النحوي، والمستوى اللانحوي، والمستوى المفروض، ويرى أن المستوى الثاني يمثل أريحية اللغة فيما يسهل الإنسان أن يتصرف فيه²². وبهذا المبدأ أو الركن يكون الجرجاني قد قضى على ذلك الفهم الخاطئ للغة، وهو أنها مجموعة من الألفاظ، فهي ليست كذلك بل هي مجموعة من العلاقات، يقول محمد زكي العشماوي: " وشبهه ما انتهى إليه عبد القاهر الجرجاني في موضوع دلالات الألفاظ وارتباط بعضها ببعض، بما انتهى إليه كثير من النقاد المحدثين، فلو أننا قرأنا الفصلين الأولين من كتاب " فلسفة البلاغة " للناقد الإنجليزي أ. أ. ريتشاردز: لوجدنا أن كل ما يحاول ريتشاردز إثباته في هذين الفصلين لا يخرج عما قاله عبد القاهر في القرن الخامس الهجري، فيما يتعلق بقضية النظم وعلاقة الكلمات بعضها ببعض²³.

ج- أساس تخيير الموقع:

وإذا كان الأمر كما سبق وأن قرره عبد القاهر الجرجاني، وهو أن اللفظة لا معنى لها ولا مزية حتى تضم إلى أخواتها في تأليف دقيق، وعلى نحو مخصوص، وأن التعلق هو ركن أساس في هذه النظرية؛ فإنه يجب أن يراعى موقع الكلمة من بين أخواتها، فالتعلق وحده غير كاف حتى ينتقي كل لفظ مكانه الملائم، أو لكل مكان لفظه المناسب، بحيث لو حوّل ذلك اللفظ من مكانه، أو أزيل عنه ذهب الرونق، وزال الجمال. يقول:

"وإذا كان هذا كذلك فينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي يكون بها الكلم إخباراً وأمرًا ونهيًا واستخبارًا وتعجبًا، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إليها إلا بضم كلمة إلى كلمة ... وهل يقع في وهم أحدهم - وإن جهد - أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعا في من التأليف والنظم، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية ؟ ... وهل تجد أن أحدا يقول: هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعاني جارئاتها، وفضل مؤانستها لأخواتها"²⁴.

وعلى هذا فالجرجاني يرى أن تخيير الألفاظ لا يعود إلى أصواتها، ولا إلى تلاؤم حروفها، بل يعود إلى خصائص ووجوه تكون معاني الكلام عليها، وعن زيادات تحدث في أصول المعاني، " وتخيير اللفظ عبارة عن خصائص ووجوه تكون معاني الكلم عليها، وعن زيادات تحصل في أصول المعاني ..."²⁵؛ وعليه فإن نظرية الجرجاني ترفض فكرة اللفظية القائلة بأن اللفظة منفردة لها دلالة، ويحكم عليها بالفصاحة أو الغرابة والنبوء، فهو يرى أن لا مزية للفظ منفردا حتى يأخذ

مكانة من أحواته في التأليف، يقول عبد العزيز حمودة: " وفي إشارة واضحة للجاحظ الذي أسس اللفظية، وتحدث عن الابتعاد عن اللفظة الوحشية كشرط لجودة السبك، لينتقل عبد القاهر إلى المفاضلة بين لفظة وأخرى.

فهذه المفاضلة بين لفظة وأخرى باعتبار واحدة مألوفة، والأخرى وحشية، أو نائية، لا يجب أن تتم خارج البنية اللغوية، خارج البناء أو الضم أو النظم، فالذي يحدد فصاحة الكلمة (هو مكانها في النظم وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها) والشئ نفسه عن اللفظة المتمكنة والمقبولة. أما اللفظة القلقة النائية والمستكرهة، فهي اللفظة التي لا تتلاءم مع الألفاظ الأخرى داخل الكلام" ²⁶.

ويستدل عبد القاهر على هذا الأساس - الموقع ، الموضع - بأنك قد تجد الرجلين يستعملان الكلمة نفسها، أو قل مفردات اللغة وهي نفسها عندهما، فترى أحدهما قد أحسن اختيار الموقع وحسن السبك؛ فبلغ سماء الفصاحة، في حين ترى الآخر قد لصق بالحضيض، فيقول: " وهذا باب واسع فإنك تجد متى شئت الرجلين قد استعملا كلما بأعيانها، ثم ترى هذا قد فرع السماء، وترى ذلك قد لصق بالحضيض، فلو كانت الكلمة حسنت، حسنت من حيث هي لفظ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها، وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم، لما اختلف بها الحال، ولكانت إما تحسن أبداً أو لا تحسن أبداً، ولم تر قولاً يضطرب عل قائله حتى لا يدري كيف يعبر، وكيف يورد ويصدر كهذا القول" ²⁷.

ويضرب الجرجاني مثلاً لهذا الركن؛ فيقول: " ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر، كلفظة "الأخدع" في بيت الحماسة:

تلفتُ نحوَ الحيِّ حتى وجدتنِي وجعتُ الإصغاءَ لِيَتَّأ 28 وأخدعاً 29

وبيت البحتري :

وإني وإن بلغتني شرفَ الغنى وأعتقتُ من رِقِ المطامعِ أخدعي

فإن لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن، ثم أنك تتأملها في بيت أبي تمام:

يا دهرُ قَوْمٍ من أخدعِكَ فقدُ أضججتَ هذا الأنامَ من خرقك

فتجد لها من الثقل على النفس، والتنغيص، والتكدير، أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة والإيناس والبهجة"³⁰.

وقد سمت سناء حميد البياتي هذا الركن بـ (الترتيب)، وكذلك سماه تمام حسان وقال عنه: " من المعروف أن الكلام لا يتوالى بصورة جزافية، فلا يقال مثلاً: على ركب حصانه الفارس ... ولو بقيت على هذه الصورة من صور التوالي ما اعتد بها في قبيل الجملة"³¹.

د- معاني النحو:

ذكره صالح بلعيد ضمن الأركان العامة لنظرية النظم³²، وذكره محمود أحمد نحلة فقال: " وهو الركن الرابع والأخير من أركان نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، وقد عني عبد القاهر بهذا الركن عناية بالغة؛ لأنه ثمرة النظم ومحصوله"³³، وسمت سناء حميد البياتي هذا الركن بـ (الوجوه والفروق)، وجعلته الركن الرابع من أركان هذه النظرية، وهذه التسمية هي أدق من التسمية الأولى كما سيأتي؛ يقول: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نحتت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها"³⁴.

وليس المقصود بمعاني النحو هو الإعراب وقواعده المشتركة بين البلغاء وغيرهم ممن أوتوا نصيباً من اللغة، وإنما المراد ما وراء الإعراب من معان تقتضيه، تستنبط بالفكر، ويستعان عليها بالروية. يقول الجرجاني: "ومن ههنا لم يجز إذن عدّ الوجوه التي تظهر بها المزية أن يعد فيها الإعراب، وذلك أن العلم بالإعراب مشترك بين العرب كلهم، وليس هو مما يستنبط بالفكر ويستعان عليه بالروية، فليس أحدهم بأن إعراب الفاعل الرفع أو المفعول النصب والمضاف إليه الجر، بأعلم من غيره، ولا ذاك المفعول به مما يحتاجون فيه إلى حدة ذهن وقوة خاطر، وإنما الذي تقع الحاجة فيه إلى ذلك العلم بما يوجب الفاعلية للشيء إذا كان إيجاباً عن طريق المجاز، كقوله تعالى: " فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين"³⁵، وكقول الفرزدق: سقتها خروق في المسامع ... وأشباه ذلك، مما يجعل الشيء فيه فاعلاً على تأويل يدق ومن طريق تल्पف، وليس يكون هذا علماً بالإعراب، ولكن بالوصف الموجب للإعراب"³⁶.

وقد تفتن نصر أبو زيد لهذا ففرق بين أصول النحو وعلم النحو، مؤكداً على أن الشيء الذي حاول الجرجاني إرساءه هو "علم النحو" وليس "أصول النحو"، والمقصود بعلم النحو هو الوجوه والفروق، والمقصود بأصول النحو هو قوانين الإعراب والتركيب.

يقول: " وقد يبدو من هذا النص أن "علم النحو" يتطابق مع النظم، ويبدو هذا التطابق واضحاً من أسلوب القصر الذي استخدمه عبد القاهر في قوله " ليس النظم إلا ... "، ولكن علينا أن نكون على بصيرة بترفة عبد القاهر الضمنية بين "أصول النحو" التي هي قوانين التركيب التي يحصرها في مدخل "دلائل الإعجاز"، وعلم النحو الذي يحاول عبد القاهر أن يرسى قواعده، والذي يقوم كتاب الدلائل كله على تفصيله، تنتمي "أصول النحو" إلى "مجال قوانين اللغة". أما "علم النحو" أو "النظم" فهو الذي يحصر الخصائص "الفنية" و"الأدبية" في الكلام شعراً كان أو نثراً"³⁷.

وهذا الذي ذهب إليه نصر أبو زيد وغيره من اللغويين شيء واضح جداً لمن تدبر أقوال الجرجاني: " وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: إن تخرج أخرج، وإن خرجت خرجت، وإن تخرج فأنا خارج، وأنا خارج إن خرجت، وأنا إن خرجت خارج ... فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل نية، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد، وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه"³⁸.

بقي أن نشير أن هناك ركناً آخر ذكره تمام حسان وسناء حميد البياتي وهو البناء، وقد جعله تمام حسان الركن الثاني، وذلك بعد " أن يحدد المتكلم المعاني النحوية التي يريد التعبير عنها، ويتم نظمها في نفسه يبدأ في تأليف طوائف المعاني في صورة مجموعات تنتمي كل مجموعة منها إلى كلمة واحدة، وذلك كاجمع بين المعنيين (حدث + زمن) الدالين على الفعل، فيضم إليهما ما يصاحبهما في نطاق النظم من أصل اشتقاق ليصوغ من الجميع فعلاً مشتقاً من الأصل الاشتقائي المذكور، ويفعل ذلك ببقية كلمات الجملة على غير الترتيب"³⁹، وهذا الركن لا يكاد ينفصل عن الركن الأول - نظم المعاني في النفس - لذلك ارتأيت ألا أجعله منفصلاً عنه.

الخاتمة:

لقد أودع عبد القاهر الجرجاني نظريته اللغوية في كتابه دلائل الإعجاز، ولكن القارئ لهذا الكتاب والواقف على مضامينه لا يعثر على تصريح بتسمية أركانها؛ ولذلك لم تتوافق اجتهادات الدارسين المحدثين في استخراجها وعدّها؛ ومع ذلك نقرّ بأن مساحة الاختلاف يسيرة، وربما لو

اجتهد مجتهد في ردها إلى بعضها لأمكن ذلك ببسر؛ وذلك لا ينقص من قيمتها العلمية، كمنظري لغوية جمعت بين التنظير والتطبيق، فهي تتماشى مع ما وصلت إليه أحدث النظريات اللغوية في كثير من القضايا؛ كالعلاقة بين اللفظ والمعنى (المدلول والمؤول)، وأنها وجهان لعملة واحدة، على حد وصف "دو سوسير"، وأن الفصاحة والبلاغة تتعلق بالنظم وليس باللفظ وحده، ولا المعنى وحده، وأن اللغة نظام وليست مفردات، ومعنى المعنى، وغيرها من المسائل اللغوية اللطيفة، التي لقيت صدى طيبا في الدرس العربي الحديث، وكان لها أثرها الواضح في صياغة فكرنا اللغوي المعاصر.

هوامش البحث:

- ¹ جعفر دك الباب: الموجز في شرح "دلائل الإعجاز في علم المعاني" (نظرية الإمام الجرجاني اللغوية وموقعها في علم اللغة العام الحديث)، مطبعة الجليل، دمشق، ط1، 1980م، ص30.
- ² ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، الجزء5، ص4469.
- ³ دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001م، ص32.
- ⁴ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001م، ص43.
- ⁵ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص40.
- ⁶ المرجع نفسه، ص40.
- ⁷ واصل بن عطاء رئيس مقالة الاعتزال، وكان أثلغا ينطق الراء غينا.
- ⁸ محمود أحمد نحلة: في البلاغة العربية، علم المعاني، دار العلوم العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1990م، ص25.
- ⁹ تمام حسان: مقالات في اللغة والأدب، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2006م، الجزء الثاني، ص334-335.
- ¹⁰ سناء حميد البياتي: قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2003م، ص15.
- ¹¹ أحمد حسن صبره: التفكير الاستعاري، مكتبة الوادي، بدمنهور، ط2، 2002م، ص104.
- ¹² سناء حميد البياتي: قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم، ص15.
- ¹³ ينظر: المرجع نفسه، ص15 - 19.
- ¹⁴ ينظر: سناء حميد البياتي: قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم، ص27.
- ¹⁵ محمود أحمد نحلة: في البلاغة العربية، علم المعاني، ص28.

- ¹⁶ تمام حسان: مقالات في اللغة والأدب، الجزء الثاني، ص 336.
- ¹⁷ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 44.
- ¹⁸ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 44.
- ¹⁹ المرجع نفسه، ص 77.
- ²⁰ عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي: الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية، التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، 2002م، ص 71 - 72.
- ²¹ المرجع نفسه، ص 72.
- ²² عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي: الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية، التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، ص 74.
- ²³ محمد زكي العشماوي: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1979م، ص 319 - 320.
- ²⁴ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 35 - 36.
- ²⁵ محمود أحمد نحلة: في البلاغة العربية، علم المعاني، ص 31.
- ²⁶ عبد العزيز حمودة: المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية، دار عالم المعرفة، الكويت، 2001م، ص 238.
- ²⁷ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 39 - 40.
- ²⁸ اللبّيت: صفحة العنق، ومثناه لبيتان، وجمعة: ألياث.
- ²⁹ الأندح: عرق في المحجنتين.
- ³⁰ محمود أحمد نحلة: في البلاغة العربية، علم المعاني، ص 31.
- ³¹ تمام حسان: مقالات في اللغة والأدب، الجزء الثاني، ص 335.
- ³² ينظر: صالح بلعيد: نظرية النظم، دار هومة، 2002م، ص 143.
- ³³ محمود أحمد نحلة: في البلاغة العربية، علم المعاني، ص 32.
- ³⁴ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 33.
- ³⁵ سورة البقرة، الآية 16.
- ³⁶ محمود أحمد نحلة: في البلاغة العربية، علم المعاني، ص 32 - 33.
- ³⁷ نصر أبو زيد: مجلة النقد الأدبي، الأسلوبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد الخامس، العدد الأول / أكتوبر / نوفمبر / ديسمبر 1984م، ص 15.
- ³⁸ عبد الفتاح لاشين: التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، دار المريخ، د - ت، ص 82 - 84.
- ³⁹ تمام حسان: مقالات في اللغة والأدب، ص 335.